النفس الأندلسية فى كتابات ثرفانتز

لا يعرف القلب الأسبانى من لم يعرف ثرفانتز ، ولا يعرف ثرفانتز من لم يعرف قيمة التراث الاسلامى فى الأرض الأسبانية ومداه . ذلك أن ثرفانتز كاد أن يجمع فى نفسه نفوس الأسبان جميعاً ، وكاد أن يجمع فى كتاباته كل ما كتب الله لأهل هذا البلد العظيم فى ماضيهم ومستقبلهم ؛ فما من شخص يلقاك فى هذه البلاد أو يطالعك فى صحائف تاريخها إلا وجدت له فى كتابات ثرفانتز شبيهاً يذكرك به ، وما من خصلة تلمحها فى أسبانى إلا وجدت هذا الرجل قد فطن إليها وأثبتها وعرضها فى شتى حالاتها عرضاً يكاد يغنيك عن التماسها فيمن ترى من الأحياء .

ثم إنك لو أقبلت تقرأ هذا الرجل بعد إلمام — ولو يسيراً — بما كان الأسبان عليه أيام كانوا مسلمين ، وبما كانوا عليه أيام كانوا بين الاسلام والنصرانية ، وبما بقى فى نفوسهم من الآثار حين دخلوا النصرانية ، فانك تجد فيما تقرأ لذة لا تكاد تعدلها لذة . فهذا الدون كيخوته تتتبع مغامراته وتقرأ أوصافه ، فيشوقك كل ما تقرأ ، ويستهويك مايبدو له من رأى وما يملأ نفسه من شعور ، ولكنك تنكر منه حماسة تبلغ به حد الغفلة ، وتنكر منه سذاجة لا تتفق مع مايقال لك من أنه ظل يدمن القراءة حتى « جف دماغه » كما يقول ثرفانتز ، وأنت تنكر منه أن ينهض للأمر العظيم ويمضى يجاهد فى سبيله حتى يجهد نفسه ويجهدك معه ، ثم هو يعود بعد ذلك دون أن يحقق من الأمر العظيم شيئاً . أنت تعجب بهذا كله وتنكر هذا كله ، وتحسب أن فى ذلك تضارباً لا يستقيم فى شخصية واحدة ، ولكنك إذا ذكرت أن الذهن الذى رسم هذا الشخص الطريف لم يكن أسبانيا صرفاً ولا أوربيا صرفاً ، وإنما خالطته عناصر شرقية بعضها عربى وبعضها غير عربى ، بعضها وليد الطبع الأسبانى الأصيل وبعضها بقايا بعيدة خلفها هؤلاء العرب ومن

أقبل معهم من المسلمين وما خلفوه فى النفس الأسبانية من خصال لاتذهب مع الأيام .

فكيخوته إذا نهض لأمر ملأه الحماس له قوة فمضى وقد آلى على نفسه ألا يسكن له جنب حتى يقضيه ، ثم هو لا يكاد يبلغ من هذا الأمر جانباً حتى يصرفه هذا الجانب عما بقى . وهو فى هذا يشبه بعض أجداده من المسلمين فى بلادهم : ينهضون للقاء العدو ويقسمون ألا يستريح لهم جنب حتى لا يبقوا له أثراً ، وما هو إلا أن يبلغوا بعض النصر حتى يأذنوا لجنوبهم أن تستريح ، وتصرفهم الراحة عن مواصلة المسير فيعودون لكى يحتفلوا بما أدركوا من نصر ، تاركين العدو ينهض خلفهم من جديد كأنهم لم يبلغوا منه شيئاً . وأنت تجد الدون كيخوته يحب المديح فيسرف فى هذا الحب ، يسمع الناس يصفونه بما ليس فيه ويحس أنهم يسخرون منه ومع هذا يطرب لهذا المديح ويستزيده وربما استغنى به عن السعى والاجتهاد ، فيذكرك هذا ببعض أجداده من المسلمين الأسبان الذين كانوا يطربون للمديح ويستزيدون منه وهم لا يشكون فى أنه كذب صرف ، ويصرفهم هذا المديح عن العمل العظيم أو العمل المفيد . ما قرأت فصلا من الدون كيخوته إلا قفزت إلى نفسى صورة المعتمد بن عباد ، فهذا رجل كان يحلم بالسيادة كما كان يحلم بها كيخوته ، ويسعى لها حتى استكمل أدواتها كما استكمل كيخوته أدوات الفروسية ، ولم تكن أدوات المعتمد بأصلح للغرض الذى رمى اليه من أدوات كيخوته للأمر الذى طلب . فهذا المعتمد يحلم بجمع الجزيرة كلها تحت لوائه ، فتبلغ به الحال ألا يكون له أكثر من بضع مئات من المقاتلين معظمهم من المرتزقة المأجورين أو من شذاذ الآفاق الذين لا يعول عليهم فى مطلب كبير أو صغير . وهكذا نجد كيخوته يتخذ لنفسه سيفاً كليلا ويلفق لنفسه لباس فارس مفكك قد يربط بعض أجزائه ببعض بقطعة من ليف ، ويحمى رأسه ببيضة لا يمسها حد سيفه حتى تتبدد شعاعاً .

وهذا المعتمد يقسم ليغزون قرطبة ، وينشد الأشعار يتغنى بما سيأتى من الفتح الذى لم يسبقه إليه أحد ، ثم لا يكاد جيشه يقربها حتى يبرز له الأعداء فيبددوه ، ويعود إليه الجيش ممزقا مفرقا ، فلا يمنعه ذلك من أن يجلس للشعراء ويستطيب ما يحدثونه به مما أوتيت « جحافله » من النصر المبين

وكذلك كان كيخوته يتحدث الناس أمامه بما يلاقى المساكين الذين يقدر لهم الحظ السيىء العمل فى الأسطول ، فيقسم ليخلصنهم ، ويمتطى صهوة جواده لا تكاد الأرض تسعه من فرط التوفز والحماسة ، ويمضى حتى إذا لقى رجال الحكومة اشتبك معهم ، فهزموه وآذوه ، ثم يعود دون أن يخلص أحداً أو ينقذ مظلوماً ، فلا يمنعه ذلك من التحدث بما أتى من أعمال الشجاعة ومن إنصاف المساكين . . .

وهكذا : ما مررت بشىء فى كيخوته إلا ذكرت مثيله فى المعتمد ، تذكرنى الدمبكية بدولتينيه ، وتذكرنى أفراسه التى يتحدث عنها بروسينانت ، وتذكرنى نفحات كرمه فى المال بنفحات كيخوته فى الخيال ، ولو قد أوتى مال المعتمد لأعطى ، ولكنه كان فقيراً معسراً . وما تصورت المعتمد فى منفاه فى أغمات إلا طفرت إلى ذهنى صورة كيخوته راقداً على سريره ينتظر الموت فى ظلال الإخفاق كما كان المعتمد يتمنى الموت فى ظلال الأسر .

ولم يكن المعتمد فريداً فى بابه ، ولا بالوحيد الذى لا مثيل له بين معاصريه أو أسلافه ، فقد اشترك واياهم فى الإسراف فى التمنى والاسراف فى النشاط ، وفى الاكتفاء بالخيال والبعد عن الواقع . وهذه خصلة ظهرت عند المسلمين الأسبان خلال القرن الثالث الهجرى ، وشاعت بينهم خلال القرن الرابع وما تلاه . وما هكذا كان المسلمون فى أسبانيا خلال القرن الثانى الهجرى ، لأنهم كانوا ما زالوا عرباً . وهذه الخصلة وغيرها نتجت عن امتزاجهم بالأيبريين من أهل البلاد ، وتأصلت بعد ذلك فى الخلق الأسبانى ولازمته حتى اليوم ، لا تكاد تجد منهم أحداً إلا لمست فيه هذا النزوع وهذا التوفز . ثم إنك لا تعدم بعد ذلك أن تجد منه القعود عند منتصف الطريق ، والعودة من المرحلة الطويلة بالقليل أو بلا شىء . ولست أذهب بك بعيداً ، فهذا هو الشعب الأسبانى النصرانى كله يهم فينشىء دولة تكاد تسع الدنيا ، ويمضى يملأ الدنيا دوياً حتى يشغلها بنفسه زماناً ، ولا تكفيه أوربا فيعبر المحيط إلى عالم جديد ينشئه ، ثم هو يعود آخر الأمر إلى وطنه يجر أذيال الخيبة ، ويغلق بابه على نفسه ، ويلقى سلاحه ، ويقبع فى عقر جزيرته لم يصب من جهده غير الاجهاد والحرمان .

أليس هذا كيخوته ؟ . . .

أليس هذا المعتمد ؟ . . .

أليس هذا رمزاً لحيوات ملايين الأسبان النصارى مثل كيخوته ؟

أليس هذا رمزاً لحيوات ملايين من الأسبان المسلمين مثل المعتمد ؟

بلى ! فلن تدرك الجمال فى صورة هذا الفارس العتيد إلا إذا عرفت أنه يصور النفس الأسبانية فى صميمها ولبابها ، ولن تدرك جمال هذه النفس الأسبانية إلا إذا ذكرت أسلافها المسلمين وما خلفوه فى طبعهم من أسرار .

ولعل صاحبنا سانشو بانزا أن يكون أوفق لتقرير ما قلناه من صاحبه وأستاذه السيد كيخوته .

فسانشو رجل عاقل يمثل الواقع ولا يريد أن يعدوه ، وهو حصيف يفهم من الأمور مالا يفهمه أستاذه ، وهو يحاول جهده أن يصرف الأستاذ عن خياله فيخفق فيما يريد ، ولكنه لا ييأس من دركه مراده ، فيمضى مع صاحبه ويلقى بنفسه فى المهالك معه لأنه يحبه ويعجب به ولا يطيق ان يتركه ، فاذا مضى معه ردحاً أخذ يتأثر به وأخذ يتخلى شيئاً فشيئاً عن الواقع الضيق الذى كان يلتزمه أول الأمر ، ثم إذا به يحلق فى الخيال مع صاحبه ، ثم يسرف فى التحليق حتى لنجد كيخوته ينصحه ويحاول أن يصرفه عن هذا العبث الذى يكاد يهلك نفسه فيه . ولكنه لا يستطيع أن يجرى مع الخيال شأواً بعيداً ؛ لأن مسكة من العقل بقيت فيه ، فهى ترده عن الاسترسال فيما تعلقت به نفسه ، وهكذا « يقعد فى منتصف الطريق فلا هو أقام على فلسفته وعقله ولا هو أصبح مغامراً مخاطراً . . . » ذلك هو الرجل الأسبانى العادى فى بعض نواحى نفسه .

فمعظم الأسبان فلاسفة عقلاء ، لا تكاد تحدث أحدهم حتى تجد فى نفسه من الحكمة والعقل والفلسفة الخاصة ما يعجبك ويجعلك تحسب أن هذا الرجل أسعد الناس بما وعى فى صدره من الحكمة ، ولكنك لا تكاد تمضى معه قليلا حتى تتبين أن العقل والحكمة والرزانة والاتزان ليست وحدها دستور حياته بل تلمس فيه أيضا أحيانا ميلا إلى المخاطرة واسترسالا مع الخيال يذكرك بالسيد كيخوته . فاذا صبرت بعد ذلك على صحبته يسيراً تبينت أن حياته كلها مشطورة بين العقل والخفة والواقع والخيال ؛ فهو نصف فيلسوف ونصف مغامر ، هو نصف كيخوته ونصف سانشو ، هو فى مجموعه أشبه الأشياء بهذه

القطعة الفريدة التى صاغتها يد ثرفانتز فى هذا القالب البديع الذى لا يصدر إلا عن قلم إسبانى لا يختلف هو فى نفسه عن كيخوته أو سانشو . ألم يكن ثرفانتز حكيما فيلسوفاً ؟ ألم يكن قارئا كاتباً قد وعى من الكتب فى صدره وخط من الكتب بيده ما لم يدانه فيه إلا القليل من بنى الزمان ؟ فما الذى دفعه إلى المخاطرة وركوب الأهوال والوقوع فى الأسر وتحويل حياته إلى هذه الأوديسية الفريدة فى بابها . . . ؟ ثم ألم يعد بعد هذا كله إلى بلاده ويستقر به الحال ويأخذ فى أسباب حياة هادئة لا بأس عليها . . . فما الذى دفعه إلى المخاطرة مرة أخرى وقد كانت له عن ذلك مندوحة ؟ لعلنا لا نفهم ذلك على وجهه إلا إذا ذكرنا أن الرجل كان فى نفسه مزاجاً من كيخوته وسانشو : من التخيل المبالغ فيه والحكمة البالغة ، من القلب العامر المتوفز والرأس العامر الملئ . . .

ثم ما سر إعجاب الأسبان كلهم بهذا الكتاب ؟ كيف تلقفوه ساعة وصل إلى أيديهم واستغنوا به عما كانوا يتداولونه بين أيديهم فى ذلك الزمان من كتب المخاطرات والمغامرات ؟ كيف انصرفوا دفعة واحدة عن الاعجاب بأبطال من طراز برناردو دل كاربيو وأماديس دى جاولا أولئك الذين كانوا يتسامرون بأخبارهم لا يكادون يعدلون بها شيئاً غيرها ؟ بل كيف انقلبوا عليهم فجعلوا يسخرون منهم وممن يقرؤهم . . . ؟ الجواب على ذلك يسير : فهؤلاء أبطال لا يشبهون الأسبانى إلا فى جانب واحد ، إنهم جميعاً مغامرون فحسب ، مغامرون يواتيهم الحظ ويساعفهم المقدار فيمضون من نصر لنصر ومن مجد لمجد لا يكاد الدهر يخونهم أبداً . . . أما كيخوته فرجل سيئ الحظ على رغم ما وضع الله فى قلبه من حسن النية وثبات القلب والصبر على المكاره : لا يكاد يطلب أمراً حتى يبدأ الدهر يعاديه كأنه له بالمرصاد ، فيتركه يمضى فى شأنه ، حتى إذا نال منه الاجهاد وكاد يوفى على غايته حال بينه وبين مطلبه . ويعاود الرجل السعى ويعاود الدهر عبثه . وهكذا تمضى حياته على هذه الوتيرة المجهدة المتعبة . ذلك هو ما يميز السيد كيخوته من غيره من الأبطال ، وهذا ما يقربه من النفس الأسبانية ؛ لأن كل أسبانى لا يشك فى أن الدهر عليه فى كل حين ، وأنه لولا المقادير لأدرك من الفوز أضعاف ما يبلغ غيره ، لأنه لا يشك فى أنه من خير أبناء الزمان ، بل أحسن أبناء الزمان جملة .

ثم أين هذه السخرية الحلوة التى تشيع فى حياة كيخوته كلها ؟ أين هى

فى حياة بطل مثل برناردو دل الكاربيو يمضى فى مغامرات كلها عبث وهو مع ذلك يظن أنه أكثر أهل الأرض جدا ، ولا يكاد يدرك نصراً بسيطا حتى يأخذ يفخر بنفسه ويعجب بها كأن الله لم يخلق غيره ؟ بل أين هى فى حياة رجل كالسيد القمبيطور صاغه مؤرخوه على نحو لا يكاد يصدقه أحد : فهو خير كله عدل كله تضحية كله إخلاص كله . . . ؟ أليس ذلك ثقيلا على النفس لا يكاد يحبه إلا الذى يقرأ أخباره وهم مصمم مبدئيا أن يحبه ويعجب به على أى حال ؟ فأين هذا من كيخوته الذى يسخر من نفسه ويلومها ويدل الناس على نواحى الضعف منها وكأنه يريد أن يزهدهم فى شخصه وفى أعماله ؟ أين برناردو دل كاربيو ، وأماديس دى جاولا والسيد القمبيطور من هـذا الرجل الذى يزهد فى إعجاب الناس لأنه يعرف قدر الناس ؟ أين هؤلاء جميعاً من هذا الانسان الحى بحسناته وسيئاته ، بجماله وقبحه ، بتوفيقه وإخفاقه ؟ أين هيئاتهم المختلفة من هيئته الصادقة التى تمس القلوب لأنها صادقة ؟

وهل عرفت أسبانيا لا يسخر ؟ هل عرفت أسبانيا لا تكاد تحدثه عن شئ إلا بدأ يسخر به و يمضى فى السخرية حتى تكاد تحسبه لا يحب شيئاً ولا يعطف على شئ ؟ أليست السخرية هى الجانب المميز لمعظم كتابهم من ثرفانتز إلى أورتيبى أى جاسّت ؟ ألا تلمح هذه السخرية حتى عند رساميهم من أمثال موريليو ؟ ألست تجد فيما صور من غلمان الشوارع وفقراء المدن لوناً من السخرية بأترابه الرسامين الذين حصروا جهدهم كله على الجوانب الجميلة الزاهية من الحياة ؟ الحق أن السخرية تكوّن جانباً هاما من جوانب النفس الأسبانية ، بل هى أحب جوانبها إلينا لأنها فى الواقع جماع ما أودع الله قلوب الأسبان من حكمة وفلسفة . . .

ثم عد بنا قليلا إلى أصول هذا المزاج الساخر الذى لا يكاد يدع شيئاً دون أن يركبه بالسخر فى كل حين ، وتعال نبحث عن بعض أصولها عند الأسبان المسلمين : إنك لا تكاد تقلب كتاباً من كتبهم إلا وجدته فياضاً بما يدل على أن السخر كان طبعاً مركباً فى هؤلاء الناس ، بل يخيل لمن يقرأ أخبارهم أن حياتهم كانت سخراً متصلا بأنفسهم وبغيرهم من الناس ، فما من عيب يرونه فى هيئة أحد إلا اتخذوه موضعاً للسخر لا يفرقون فى ذلك بين صغير وكبير : فهذا قاض قصير القامة قصير العنق يلقبونه بالقبعة ، وهذا قائد اشتهر بالبخل

يسمونه البطرشك أى الحجر اليابس Pietra Seca . وهذا قاض مسرف فى السذاجة حتى يتهم بالغفلة ، يأمر غلامه أن يتناول من المتخاصمين أوراقاً فيها أسماؤهم ثم يناديهم واحداً واحداً . فيحتال بعض الناس فيدسون على الغلام أوراقاً فيها عيسى ابن مريم ويونس بن متى ، ولا يفطن القاضى لذلك . فيجعل غلامه ينادى هذين الاسمين ، فيبرز له رجل يقول وهو يضحك : « ما هذا يا مولانا . . . إن ظهورهما من أشراط الساعة ! . . . » وتضحك قرطبة كلها من غفلة هذا الشيخ المسكين . وهذا القاضى سليمان بن أسود يخيف أهل قرطبة بشدته وحزمه ، فلا يمنع ذلك الناس من أن يضعوا تحت الحصير الذى يجلس عليه فى مجلس القضاء شيئاً من ورق البلوط الجاف ، ولا يكاد الشيخ يدوسه حتى يتكسر ، ويمد يده يتحسس فاذا بورق البلوط ، فيعرف أن أهل قرطبة يسخرون بأصله لأنه كان من فحص البلوط . وهذا هو الأمير عبد الله — أمير شيخ عاقل حازم ، يسخر من وزيره سليمان بن وانسوس ، فيقول له : أقعد يا بربرى ! ويضحك الناس ويألم الوزير ويغضب لأن الأمير يعيره بأصله . وهذا ابن ابن عبد به صاحب العقد الفريد يمازح صاحبه القلفاط الشاعر ، فيسخر منه سخراً يغضبه ، وينتهى الأمر بأن يتخاصم الرجلان خصاماً يفرق بينهما حتى الموت . وهذا الوزير سليمان بن وانسوس يتحدث عن صاحبه الوزير ابن جهور فى مجلس الأمير عبد الله فيقول :

جاء الحمار — حمار المرج — محتشياً ... مما أفاد من الأموال والطرف
خلى لبيرة قد أودت مساكنها ... بقبح سيرته والعنف والسرق
فاحمل على العير حملا يستقل به ... واترك له سبباً للتبن والعلف

وهذا الوزير أحمد بن عبد الملك يذهب ليزور صاحبه الوزير عبد الملك ابن جهور فيتأخر فى الاذن له ، فيكتب على بابه :

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا ... إليك ولا قلب إليك مشوق
ولكننا زرنا بضعف عقولنا ... جماراً تولى برّنا بعقوق

ويمضى . وهذا الخليفة الناصر نفسه يغرى بعض جلسائه ببعض ليسخر

منهم كلهم وليشبع فى نفسه ونفوسهم النهم إلى السخرية اللاذعة التى قد تصل إلى حد الإيلام . . . وغير ذلك كثير بل كثير جدا .

كان الأندلسى إذن رجلا ساخراً ، لا يعجبه شئ ولا يكاد لسانه يعفى شيئاً . ولم يكن الأسبان كذلك قبل أن يعرفوا العرب ويختلطوا بهم ، فهذه كتابات أدباء الأسبان اللاتين من أمثال سنكا وكنتليان ومارشيال ولوكاين وفلوروس لا نكاد نجد فيها للدعابه أو للسخر أثراً ، فما هو إلا أن اختلط الأسبان بالعرب وامتزجوا بهم وبمن معهم من المسلمين حتى ظهرت فيهم هذه الخصلة ولازمتهم حتى صارت خصلة تكاد تميزهم من غيرهم من الشعوب . . .

لهذا أعجبهم ثرفانتز، ولهذا أحبوا كيخوته وسانشو بانزا وخينيته وكورتاديليا وغيرهم من الأشخاص الساخرة التى صقلتها يد هذا الفنان المبدع وجعلتها رمزاً للسخر الدائم من كل ما فى الحياة . . .

ليس عبثاً أن نجد ثرفانتز يسند بعض أخباره إلى رجل اسمه هامت بنخلى يترجمه المستعربون حامد بن انجيلى أو ابن النجيلى . وليس يعنينا هنا أن نحقق هذا الشخص ، فنحن لن نبلغ من التحقيق شيئاً ذا غناء ، ولكن الذى لاشك فيه أن ثرفانتز كان يكتب وهو متأثر تأثراً مباشراً عميقاً بالنفس الأندلسية وما خلفته فى نفوس من تلاها من أجيال الأسبان . ذلك هو موضع الصدق والجمال فى كتاباته ، وهو ما يفرده بمقام خاص ممتاز بين كتاب الأسبان ، بل بين الكتاب أجمعين .

حسين مؤنس